ISSN: 1817-6798 (Print)
Journal of Tikrit University for Humanities
available online at: www.jtuh.org/

Prof. Dr. Abdul Razzaq FayyAd Ali
College of Education for Human Sciences, Tikrit University

Assist. Lect.Yusra Sahab Ali
Ministry of Education Salahuddin Education Directorate

* *Corresponding author: E-mail* :
yossra.s.ali@tu.edu.iq

Keywords:
Origins,
grammar,
kufi, origins of grammar,
kufic grammar,
origins of kufic grammar
ARTICLE INFO

Article history:
Received 4 Jan. 2022
Accepted 17 Feb 2022
Available online 29 Nov 2022
E-mail t-jtuh@tu.edu.iq

©2022 COLLEGE OF Education for Human Sciences, TIKRIT UNIVERSITY. THIS IS AN OPEN ACCESS ARTICLE UNDER THE CC BY LICENSE
http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/

The Origins of the Kufic Grammar

ABSTRACT

The Kufic grammar did not get its share of the grammar lesson compared to the visual grammar because visual grammar had an influence that had a noticeable impact on many scholars, stakeholders, and those working in the grammar lesson.

There are a number of reasons behind this, the most prominent of which is that visual grammar was and still depends in its study on rules and analogy, and it was dominated by analogy and strictness in imposing the rule's control over the text. In this study, we investigate the views of the Kufics in the origins of grammar and monitor them in a comprehensive and comprehensive manner, criticizing some of them, returning each opinion to its owner, examining the opinions attributed to them, and showing the extent to which it is correct or not.

© 2022 JTUH, College of Education for Human Sciences, Tikrit University

DOI: http://dx.doi.org/10.25130/jtuh.29.12.3.2022.05

Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for

أصول النحو الكوفي

أ.د. عبد الرزاق فياض علي/ كلية التربية للعلوم الانسانية /جامعة تكريت
م.م. يسرى سحاب علي الجنابي/ وزارة التربية مديرية تربية صلاح الدين

الخلاصة:

لم ينل النحو الكوفي نصيبه من الدرس النحوي قياساً لما ناله النحو البصري؛ لأن النحو البصري كانت له سطوة أثرت تأثيرا ملحوظا على كثير من الدارسين والمعنيين والمشتغلين في الدرس النحوي.

وهناك عدد من الأسباب التي تقف وراء ذلك أبرزها إنّ النحو البصري كان ومازال يعتمد في دراسته على القواعد والقياس، وتغلب عليه صبغة القياس والتشدد في فرض سيطرة القاعدة على النص ويتضح ذلك من خلال ما قدمنا في هذه الدراسة من أصولهم التي اعتمدوها وإيغالهم في نظرية العامل. نستقصي

في هذه الدراسة أراء الكوفيين في أصول النحو ونرصدها رصداً شاملا جامعا وننقد بعضها، ونرد كل رأي إلى صاحبه ونمحص الآراء المنسوبة إليهم، ونبين مدى صحة ذلك أو مجانبته الصواب

كلمات مفتاحية: **أصول، النحو، الكوفي ،أصول النحو، النحو الكوفي، أصول النحو الكوفي**

المقدمة

لا يخفى على دارس العربية أنّ سبب نشوء النحو، هو الحرص والخوف من دخول اللحن في قراءة القرآن الكريم، فكان الفضل لوضع أسس القواعد النحوية لأبي الأسود الدؤلي، ثم كان لكتاب سيبويه والذي يُعد قرآن النحو، ثم نشوء المذاهب النحوية وأول هذه المذاهب هي المذهب البصري وبعدها جاء المذهب الكوفي، وعلى رأسها العالم الجليل الكسائي وشيخ العربية الفراء، ويعد النحو الكوفي مستقلا من حلال تناول أهل الطبقات في عرضهم للمسائل المختلفة، من خلال قولهم: ذاك بصري وهذا ينحو على مذهب أهل الكوفة، وليس الأمر مجرد رأي أو تعصب لهذا المذهب أو ذاك، والدليل على وجود المذاهب النحوية أننا لحد الأن نقر بذلك من خلال المسائل اللغوية.

ومع انحسار النحو الكوفي في كثير من المسائل وشيوع المذهب البصري فهذا لا يعني أننا نقض الطرف عن دراسة المذهب الكوفي؛ لأنه مصدر مهم من تراثنا اللغوي العربي، ولكي نقف في دراستنا على هذا المذهب وما له من أصول من خلال السماع والقياس فكانت دراستنا **(أصول النحو الكوفي)** وذلك لإبراز الأسس التي يقوم عليها علماء الكوفة فيما يخص السماع والقياس، وأنهم كانوا يتوسعون في الشاهد النحوي واللغوي، حتى أنهم يقيسون على الشاهد الواحد، الذي منعه أهل البصرة، لكنهم مع ذلك يدققون في الشواهد، من خلال الزمان والمكان، وأنهم توسعوا في القراءات القرآنية، وتوظيف ذلك في الدراسات النحوية.

فجاءت الدراسة في التعريف بالمذهب الكوفي والوقوف على العلماء الأوائل والاختلاف فيمن له السبق في هذه المذهب، وذكر أهم علماء هذا المذهب مع عرض أهم مؤلفاتهم، وبيان كيف تعاملوا مع أصول النحو بأصليه السماع والقياس من خلال عرض بعض المسائل النحوية، وقول علماء العربية القدماء والمحدثين، وأُردف بعد عرض آراء العلماء المتقدمين رأيي في ذلك ثم أذكر أهم النتائج التي توصلت إليها، وأسأل الله التوفيق.

المبحث الأول

مفهوم الأصول في النحو، والنشأة والتطور، وعلماء المدرسة الكوفية

أولا: مفهوم الأصول:

الأصول لغة: الهمزة والصاد واللام أصل، وهو أول الشيء، أو أساسه، ويقال: فلان لا أصل له ولا فصل، أي: لا حسب ولا لسان، وذكر ابن فارس أنه يعود إلى ثلاثة أصول؛ أولها: أول الشيء، وثانيها: نوع من الحيات، وثالها: ما كان من النهار بعد العشي. فالأصل هو أصل الشيء وأوله وأساسه[1]. فهو أصل وأساس الشيء؛ أي: ما يبتني عليه غيره.

الأصول اصطلاحا: هو أسفل الشيء، وبقاءه على ما كان عليه، والأصل في كل معدول عن شيء أن لا يخرج عن النوع الذي منه[2]. فهو أول حالة للحرف أو الكلمة قبل أن يطرأ عليهما أي تغيير[3].

ثانيا: النشأة والتطور:

تأخر المذهب الكوفي عن المذهب البصري بالنشوء في حوالي قرنٍ من الزمن, وذلك لأن أبا الأسود الدؤلي نزل بالبصرة وكان أغلب تلامذته من المدرسة البصرية, فسبقوا الكوفيين لذلك, إلا أنّ أصحاب المدرسة الكوفية وعلماؤها لم يقفوا مكتوفي الأيدي بل أرادوا أن يترجموا أفكارهم و آراءهم و تحليلاتهم العقلية لمدرسة و واقع ملموس, فاتجهوا لدراسة النحو المعمق في وقت كانت الكوفة تشتغل بالفقه ومبادئه و أصوله, وأيضاً بالقراءات, ومن أشهر قراء المدرسة الكوفية حمزة الكوفي الزيات (ت 150هـ)، عاصم الضرير الكوفي (ت177 هـ), الكسائي (ت189هـ).

أمّا الدكتور شوقي ضيف فيرى أن النحو الكوفي بدأ حقيقياً بالكسائي وتلميذه الفراء, فهما اللذان رسما صورة هذا النحو ووضعا أصوله، وأسسه, وأعداه بحذقهما, وفطنتهما لتكون له خواصه التي يستقل بها عن النحو البصري.[4]

وكان الدكتور مهدي المخزومي يرى أن الكوفة ليست مدرسة خاصة في بدايتها ,بل هي تتبع للبصرة, يقول: لا نعلم أن كوفياً كان نحوياً بالمعنى الدقيق للكلمة قبل الكسائي؛ فلا معاذ الهراء ولا الرواسي ممن نضعهم ضمن طبقة المؤسسين لهذه المدرسة النحوية الناشئة, ولم نسمع أن أحداً من الكوفيين تخرج بهما, واكتفى بما تلقاه عنهما, وعرف بنحو خاص استمده منهما, والكسائي والفراء اللذان هما عماد المدرسة الكوفية عرفا النحو من شيوخ البصرة وتخرجا من مدرسة البصرة.[5]

ثم يعود ليؤكد رأيه بقوله" يخيل إلي إلى أن النحويين على اختلاف طبقاتهم ومدارسهم إنما استمدوا النحو من البصرة ومن علم الخليل المتمثل في كتاب سيبويه خاصة, ولا فرق في ذلك بين كوفي و بصري و بغدادي.[6]

ونرى أن الدكتور شوقي ضيف يقف موقفاً وسطاً ومنصفاً نوعاً ما في هذا الموضوع, يقول: ينبغي أن يستقر في الأذهان أن المدرسة الكوفية لا تباين المدرسة البصرية في الأركان العامة للنحو فقد بنت نحوها على ما قد أحكمته البصرة من تلك الأركان والتي ظلت لليوم راسخة في النحو العربي, غير أنها مع اعتمادها لتلك الأركان استطاعت أن تشق لنفسها مذهباً نحوياً جديداً, هذا المذهب الذي له أسسه ومبادئه و أصوله أيضاً.[7]

ثالثا: علماء المدرسة الكوفية:

1-معاذ الهراء (ت187هـ): وهو معاذ بن مسلم الهراء أبو مسلم, كان يبيع الثياب الهروية, وقيل كناه بذلك أبوه, ولد أيام عبد الملك بن مروان, وعاش إلى أيام البرامكة, ومما نقل من نحو معاذٍ الهراء أنه قال لمن سأله((والذي هو يطعمني)) بياء؛ لأنها ليست رأس آية, وكتبوا (ويسقين) بغير ياء لأنها رأس آية.[8]

2- **الرؤاسي** (ت187هـ): أبو جعفر محمد بن الحسن بن أبي سارة[9], وهو ابن أخ معاذ الهراء و سمي بالرؤاسي لعظم رأسه, وقال ثعلب: أن سبب هذه التسمية يعود لقبيلة الرواس"[10], أخذ عن عمرو بن العلاء, وكان أستاذ الكسائي والفراء, حتى قال فيه الكسائي: ((ما وجدت بالكوفة أحداً أعلم بالنحو من أبي جعفر الرؤاسي))[11]. وله كتب منها: الوقف والابتداء, الكبير والصغير وكتاب التصغير وكتاب معاني القرآن, وذكر الزبيدي كتاب الجمع والإفراد, ولم يصلنا من رسائله سوى رسالة في لحن العامة منها نسخة في برلين[12].

3- **الكسائي (ت189هـ):** علي بن حمزة بن عبد الله بن عثمان, دخل الكوفة وهو غلام[13], و سمي؛ لأنه أحرم في كساء, وقيل؛ لأنه جاء إلى حمزة ضائفاً بكساء, فقال حمزة: ((من يقرأ, فقيل: صاحب الكساء))[14], فبقي عليه اللقب, وكان فطناً ذكياً فرأى أنه لم يبرع في قراءة الذكر الحكيم إلا إذا عرف إعرابه فاختلف إلى حلقات الرؤاسي, و إلى كتابه الفيصل, ولم يجد عنده ما يريد فرحل إلى البادية رحلته الأولى ثم عاد إلى الكوفة[15].

4- **الفراء (ت207هـ):** هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الكوفي, وذلك نسبة للديلم وهو إقليم في بلاد فارس, وكان مولى بني أسد, وقيل مولى بني صقر, إمام الكوفيين، وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب. كان يقال: الفراء أمير المؤمنين في النحو. ومن كلام ثعلب: لولا الفراء ما

كانت اللغة. ولد بالكوفة، وانتقل إلى بغداد، وعهد إليه المأمون بتربية ابنيه، فكان أكثر مقامه بها، فإذا جاء آخر السنة انصرف إلى الكوفة فأقام أربعين يوما في أهله يوزع عليهم ما جمعه ويبرهم. وتوفي في طريق مكة .وكان مع تقدمه في اللغة فقيها متكلما، عالما بأيام العرب وأخبارها[16].

أهم كتاب للفراء هو معاني القرآن, وأيضاً من مؤلفاته: الأيام والليالي و الشهور, المذكر والمؤنث, المنقوص والممدود, وكتاب الحدود وهو في القواعد العربية وهو ستون حدّاً.[17] ومن كتبه أيضاً: اللغات, المذكر والمؤنث, المفاخر, المشكل الصغير, المشكل الكبير, المصادر في القرآن, النوادر, المقصور والممدود, كتاب الواو, كتاب الوقف والابتداء.[18]

المبحث الثاني

السماع

السماع عند أئمة العربية وعلمائها أول أدلة النحو و أصل بابه فابن جني (392 هـ) يرى أنّ النحو السماع والإجماع والقياس[19], ويرى السيوطي أن أصل النحو مستمد من السماع[20].

اعتمد الخليل بن أحمد الفراهيدي في تأصيله لقواعد النحو و إقامة بنيانه على السماع كثيراً, والسماع عن الخليل كان نبعين, نبع النقل عن قرّاء الذكر الحكيم, وكان هو نفسه من قرّائه, وحملته ونبع الأخذ عن العرب الخلّص الذين كان يوثق بفصاحتهم, ومن أجل ذلك فقد رحل الخليل إلى مواطن العرب الذين سمع عنهم في الجزيرة يحدثهم ويشافههم و يأخذ عنهم الشعر واللغة, ويروى أن الكسائي سأله من أين أخذت علمك هذا فقال: من بوادي الحجاز و نجد و تهامة, وكان يسند دائما ما يستنبطه من القواعد والأحكام إلى القبائل العربية القديمة الفصيحة التي لم يدخلها أعاجم ولم يدخل لغتها شوائب[21].

وعند سيبويه ضوابط السماع هي العامل الزماني, فقد حدد النحاة مدة زمنية للاستشهاد بالشعر المسموع وكلام العرب, وبالنسبة لسيبويه كانت آراؤه بالنسبة للسماع فيما يخص مرحلة الاحتجاج ثابته من خلال الأثر الوحيد في الكتاب فقد احتج بالمسموع عن ابن ميادة، وأبي حية النميري، وابن هرمة واستشهد بالمسموع لشعراء أمويين وجاهليين ضمن عصر الاحتجاج اللغوي وذاكراً لامرئ القيس وجرير وعمر بن أبي ربيعة وغيرهم.

والعامل المكاني عند سيبويه في السماع, فقد حدد مجموعة قبائل و سمع عنها و أشهرها قيس، وتميم، وهذيل، وطيء, إلخ ويتضح أن سيبويه كان يحرص على السماع من تميم وأهل الحجاز أكثر من البقية ويذكرهما صراحة في كتابه مثلاً في قوله (باب ما أجري مجرى ليس في بعض المواضع بلغة أهل الحجاز)[22]. وقد أخذ بعض الباحثين عن سيبويه أنه لم يسمع عن العرب و لم يشافههم وإنما اكتفى

بالسماع عن شيوخه والنقل عنهم[23], لكن الحق أن الناظر في كتاب سيبويه يقع على نصوص كثيرة مسموعة عن العرب, ويرويها سيبويه بنفسه, وهذا يعني أن لسيبويه مصدرين في السماع وهما السماع المباشر عن العرب بما أتاحته ظروفه وإمكاناته, إذ إنه لا يمكن لرجل واحد أن يسمع كل المادة النحوية واللغوية عن كل القبائل بمفرده, والسماع غير المباشر وهو ما نقله عن شيوخه الذين سمعوا كلام العرب وبلغوا في العلم منازل عالية.

وإذا كان الكوفيون قد اتهموا بأنهم يبالغون كثيراً في السماع من غير تنظيم أو دليل فإننا نرى سيبويه نفسه قد استشهد بأبيات لم يعرف عليها.[24]

والبصريون كانوا قد تشددوا كثيراً في قضية السماع ولم يكونوا أبداً متساهلين في ذلك, بل قد ضيقوا الرقعة الجغرافية, لكنّ الكوفيين توسعوا في الأخذ عن القبائل الأخرى فأخذوا عن الأعراب والفرق بين البصرة والكوفة أن البصريين كانوا كثيرا ما يخطئون بعض القبائل العربية ولم يعتمدوا على السماع عنهم, وهنا قد طعن بعد الباحثين في توسع الكوفة في السماع, فقال الدكتور عبد الرحمن السيد: (أما الكوفيون فقد نشأت مدرستهم بعد أن كثر اختلاط العرب بغيرهم وحمل الأعاجم إلى اللغة لهجة غريبة عنها ودخيلة عليها, ويأخذون بالشاهد الواحد ويقيمون عليه قاعدة)[25], ويرى محمد السويح: (أن الكوفيين إذا كانوا يتوسعون في السماع عن قبائل كثيرة فإن البصريين أخذوا بشكل من أشكال التوسع قد يقل عن الكوفيين, ولكنهم سمعوا من القبائل الموجودة في أطراف الجزيرة)[26]

إن اهتمام أهل الكوفة من النحاة بالسماع كان أكثر ما عرف عند البصريين, فقد أخذوا شواهد اللغة من كل مسموع, وبنوا عليه و قاسوا, وجعلوا الشاذ جائزاً و قاسوا عليه, وقاسوا على البيت الواحد، مثل: ولكنني من حبها لعميد، وتعدوا إلى ذلك على ما خالف الأصول, و رجحوا السماع على القياس , وجعلوا دائرته أوسع, فأخذوا بشكل محدد عن الأعراب أينما وجدوا, و توسعوا في الأخذ بالقراءات, وما يعرض لها من مسائل, وفي نظرهم كل ما ثبت أنّ العرب قد تكلموا به هو مقبول, وصحيح حتى لو كان شاذاً[27].

ويقول د. ناصر الدين أسد عن الفرق بين المدرستين:" لقد كانت كثرة رواية الكوفيين مطعناً عليهم عند البصريين فاتهموا بالتكثر والتزيد غير أننا رأينا أنها كثرة لا تكثر وزيادة لا تزيد والثقات الأثبات من الكوفيين كانوا كالثقات من البصريين, ولا يعني أن كل ما رواه الفريقان صحيح مقطوع بصحته لا سبيل إلى الشك فيه و إنما هو بحاجة للدراسة والمقارنة, ولكن نؤكد أنهم لم يكونوا يتعمدون الكذب ولا غيره فروايتهم صحيحة أو قريبة من الصحة"[28]

ولم يكن منهج الكوفيين يعتمد على المنطق الصرف؛ فقد كان معظمهم من اللغويين, ومن هنا كانت أحكامهم تفتقر للدقة. فمنهجم سماعي, إلا أنهم أسسوا لتطور البحث اللغوي, واللغة في نظرهم ملك لمن يستعملها, فهي كائن حي يتأثر بالمجتمع[29].

هل يقبل العقل أن نقول إن منهج علماء مثل الكسائي والفراء والهراء والرؤاسي وغيرهم من جهابذة الكوفة يفتقر إلى الدقة, هل هذا الباحث عاش معاناة علماء الكوفة وجهودهم في خدمة اللغة العربية الفصحى حتى يخلص هو أو غيره إلى مثل هكذا نتيجة؟

ومن الباحثين من يرى أن وجوه الكوفيين ماهي إلا آراء متطورة عن آراء البصريين, فمعظمهم تتلمذوا على يد هؤلاء, وتلقوا علوم اللغة عنهم, فالكوفيون لم يكن لهم أصول يبنون عليها غير ما أخذوه عن أساتذتهم البصريين, ولم يحسنوه, ثم جعلوا من عدم المنهج في سماعهم منهجاً خالصاً فسمعوا الشاذ واللحن والخطأ, و أخذوا عمن فسدت لغتهم من الأعراب والحضر, فلما اقتضت المنافسة أن يكون لهم قياس كما لأولئك بنوه على ما عندهم, ثم جعلوا كل شاذ أو نادر قاعدة لنفسه. فانتشرت عليهم قواعدهم, ولم يعد لها ما يمسكها من منطق أو قانون"[30].

هذا تحامل واضح على الكوفة, نحترم البصرة و الكوفة ولكل منهم آراء نقبلها أو لا نقبلها, لكن هذا لا يعني أن البصرة أساس و الكوفة فرع, فمن نحن حتى نضع علماء الكوفة الكبار في الصف الثاني أو نقول إنهم فرع على غيرهم, الذكاء والعلم لم يخلقه الله لناس دون غيرهم, ربما نخالف آراء البصرة أو الكوفة عقلياً, لكن لا يحق لهذا الباحث أن يرى أن الكوفة و فكرها هما تابعان للبصرة.

وكان الكوفيون يتقبلون كل قراءة قرآنية, ويتخذون منها سندا لأقيستهم, فهم يتقبلون السماع القليل من شعر العرب, ويبدو أن هناك مواقف شتى جعلت نحاة الكوفة يقبلون بكل شيء من قراءات الكتاب العزيز, فالكوفة مهبط الكثير من الصحابة, ومنزل عدد من الفصحاء وفيها أهم قراء العراق وهم عاصم بن أبي النجود (ت127هـ), وحمزة بن حبيب الزيات (ت156هـ), والكسائي (ت189هـ), ومن ناحية أخرى طابع هذه المدرسة ديني, فالكسائي زعيم من زعماء القراءة والفراء المؤسس الثاني للمدرسة الكوفية ولهما صلة وثيقة بالقرآن الكريم, وهم قبلوا الشاهد الواحد و أقاموا عليه قاعدة مسوغة لبعض التوجهات الإعرابية[31].

أرى أن تقبل الكوفيين للقراءات القرآنية هو من باب التوسع فيها, لأن كل علماء الدين والتفسير والنحو والبلاغة واللغة و غيرهم قد قبلوا بتعدد القراءات, فقبول الكوفة بتعدد القراءات ليست حجة عليهم بل حجة لهم.

وفي القراءات كان الكوفيون يجيزون الفصل بين المضاف والمضاف إليه من غير الظروف وهذا معروف عندهم[32], وللكوفيين موقف خاص من القراءات يغاير موقف البصريين من القراءات المغايرة, فقد قبلوها و احتجوا بها وعقدوا على كثير منها أصولاً و أحكاماً, ولا يرفضونها ولا يغلطونها لأنها برأيهم صواب, فقد اجتمع القراء على قراءة (يُخربون) بالتخفيف من قوله تعالى: ﴿يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢﴾ الحشر: ٢ فقد أجمع القراء على التخفيف, إلا أبا عبد الرحمن السلمي [33](ت74هـ) قرأها بالتشديد ووافقهم زعيم الكوفيين الفرّاءُ

ويقول الدكتور عبده الراجحي: مدرسة الكوفة عرفت بأنها مدرسة وصفية, وهذا لا ينبغي أن يكون حكماً عاماً لأن الأعمال الأولى لدى أئمة المدرستين اختلط فيها الوصف والتفسير, ولكن الملاحظ أنه لم تصلنا كتب نحوية متخصصة تنسب لرجال الكوفة الأوائل بل وصلنا كتب تتناول النحو من خلال الاتصال بالنصوص ككتاب معاني القرآن للفراء[34]

قال الدكتور مهدي المخزومي: كان للكوفيين اهتمام خاص بالشواهد والنوادر وكان من بين أصحاب الكسائي و ثعلب حفظة لهذه الشواهد كعلي بن الأحمر المبارك الذي حفظ أربعين ألف شاهد نحوي والأنباري الذي حفظ ثلاثمئة ألف شاهد نحوي, واهتمامهم بالشواهد المسموعة كان من باب التتبع اللغوي بما ينطبق مع منهجهم اللغوي, والشاذ عندهم إذا كان في شعر أو نثر ثبتوه قاعدة و كان حجة لهم, وهو ما تهيأ للكوفيين في كثير مما ذهبوا إليه وخالفوا البصريين فيها, ومن ذلك ما ذهبوا إليه من جواز العطف على الضمير المخفوض من دون إعادة الخافض, واستشهدوا على ذلك بقراءة حمزة في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ﴾ النساء: ١

وما ذهبوا إليه من جواز الفصل بين المضاف والمضاف إليه بأنه مسموع عن كلام العرب"[35].

ويرى بعض الباحثين المعاصرين" أن النحو الكوفي لا يكاد يجد له أنصاراً من بعد القرن الرابع الهجري, ولو أن العلماء وجدوا فيما يسمى بالمدرسة الكوفية شيئاً يختلف اختلافاً جذرياً ولكنهم وجدوا في النظرية البصرية وفي صنيع الكوفة تشابهاً جعلهم يتجهون للأصل"[36].

فإذا حكّمنا النحو تحكيماً عقلياً نرى أن هناك الكثير من الأمور في الفكر الكوفي كان أقرب للتفكير العقلي البحت من المدرسة البصرية, والحكم على أنه ليس للمدرسة الكوفية أنصار هذا كلام غير منطقي, فهل دار هذا الباحث على كل العلماء ووجد أنهم غير منتمين للكوفة؟؟ لا يجب الحكم بهذه الطريقة المتحاملة, أما عن الاختلاف بين المدرستين فهذا واضح وضوح الشمس, فمن أين لهذا الباحث أن ينسف الذكاء الكوفي؟ ويقول: إن لا أنصار له.

أرى أن اللغة في أثناء تقعيدها و استعمالها كانت بحاجة إلى ضوابط كان لا بد لها من النظام, طبعاً هذا النظام لا يرفض السماع بشكل مطلق لكن أرى أن السماع يجب أن يكون له حدود, فلا ينبغي

أن نضع قاعدة على كل كلمة يتكلم بها عربي, أو نقوم بالبحث عن أي كلمة متفوهة حتى نثبت عليها قاعدة, وأرى أن السماع هو أساس القياس لكن السماع المطرد, أي ممكن أن نقيم قاعدة على سماعها من مجموعة من العرب و لو كانت قليلة لكن ينبغي ألا تكون فرداً واحداً أو شخصاً واحداً لأن ذلك يعد شذوذاً لا سماعاً.

المبحث الثالث

القياس

نشأ القياس أول ما نشأ– في رحاب مدينة البصرة، يدل على ذلك قول أبي فَيْد مؤرج السدوسي أنه قدم من البادية ولا معرفة له بالقياس في العربية، وإنما كانت معرفته قريحته، ولعلّ أقدم مَن ينسب إليه الولوع بالقياس من متقدمي النحاة عبد الله ابن أبي إسحاق الحضرمي (ت118هـ)، وأثر عنه بأنه أول مَن فرّع النحو وبعجه، وهو الذي مدّ القياس والعلل، حتى أنه وسم بأنه كان شديد التجريد للقياس.[37]

وتطور الفكر النحوي عموماً وأصول القياس وضوابطه خصوصاً، فقد شهدنا مرحلة تأسيس المنهج لدى عيسى بن عمر الثقفي وأبي عمرو بن العلاء، وقوي عند الخليل، فقد عرف عن الخليل توسعه في القياس وتصحيحه لبعض قواعده، وكان الخليل يبني قياسه في النحو على الكثرة المطردة من كلام العرب مع نصه دائماً على ما يخالفه, ومحاولته دائماً أن يجد له تأويلاً من ذلك أنه كان يرى أن القياس في عطف المعرف باللام والألف على المنادى أن يكون مرفوعاً لأنه لو كان هو المنادى لتقدمته أيّ.[38]

والناظر لكتاب سيبويه يجد فيه أمثلة كثيرة للأقيسة المختلفة المتعددة، مما يدل على أن القياس وصل على يد الخليل إلى كامل نضجه، وتمام قوته، أي: إنه أصبح أساساً من أسس الدراسة النحوية التي تبنى عليها القواعد، ويوزن بها الكلام، ويمكن القول عموماً بأنّ أئمة المذهب البصري نَحو بالقياس نحو الدراسة العلمية المنهجية.

ويمكن القول بأن مرحلة التنظير للقياس النحوي بدأت متأثرة بالبحوث الفقهية والأصولية، فقد تصدى لها أبو البركات الأنباري منهجاً وتعريفاً وتفريعاً، وصنف كتابه في أصول النحو الذي قال في مستهله بأنه وضع كتابه على حد أصول الفقه؛ لأن بينهما من المناسبة ما لا يخفى والنحو معقول من منقول، كما أن الفقه معقول من منقول، ويعرف حقيقة هذا أرباب المعرفة بهما، وبذلك جعل القياس النحوي تقدير الفرع بحكم الأصل، وبذلك صار القياس ذا حد وشروط وأركان.[39]

توسع الكوفيون في القياس أكثر من البصريين, و لم تكن لهم قواعد محددة لذلك, فالذي كانوا يسمعونه كانوا يثبتونه و يبنون عليه قواعد حتى لو كان شاذاً, فالقياس في الأصل هو الأساس الذي يبنى

عليه ما يستنبط من القواعد في اللغة أو صيغ في كلماتها أو دلالات بعض الألفاظ فهو بمثابة المكيال أو الميزان الذي يبين الصحيح من الزائف وما يقبل أو يرفض".

والبصريون اشترطوا في الشواهد المقيس عليها أن تكون جارية على ألسنة العرب الفصحاء وأن تكون كثيرة وتمثل اللهجة الفصحى، ويمكن لنا أن نستنتج منها القاعدة المطردة, وبذلك أحكموا قواعد النحو و ضبطوها ضبطاً دقيقاً, ورفضوا كل ما خالف أقيستهم. أما الكوفيون في قياسهم فاعتدوا في قياسهم بالكثير من أقوال و أشعار المتحضرين, وقاسوا كثيراً عليها, وأدخلوا هذا القياس على القواعد الكلية العامة, وتوسعت توسعاً في القياس بشكل كبير جداً. والكوفيون على ما يراه خصومهم فإنهم لو سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلاً وبّوبوا عليه، وأنهم إذا سمعوا لفظاً في شعر أو نادر كلام جعلوه باباً، ومرد ذلك والله أعلم لما ذكره السيوطي عن الكسائي واضع الأسس الأولى للمذهب الكوفي الذي كان يسمع الشاذ الذي لا يجوز إلا في الضرورة فيجعله أصلاً ويقيس عليه، فأفسد بذلك النحو.[40]

يقول الدكتور سعيد الأفغاني: اتجه الباحثون المحدثون إلى اعتبار المذهب البصري مذهب قياس، وعدّوا المذهب الكوفي مذهب سماع، وبلغ التشدد بسعيد الأفغاني أن يقول: إنّ المذهب الكوفي لا مذهب سماع صحيح، ولا مذهب قياس منظم.[41]

يميل كثير من الدارسين المحدثين إلى أن المذهب الكوفي أكثر تشعباً وأوسع رواية، والمذهب البصري أوسع قياساً وأضيق رواية، على أن اتساع القياس البصري المبني على العلل العقلية قد يمنع السائغ، ويضيق عن المسموع. وهذا ما دعا المتأخرين من النحاة ألا يجروا على منهاجهم أو يأخذوا أخذهم. فقد حكي عن أبي عمرو بن العلاء أنه رد بعض القراءات القرآنية؛ لخروجها عن قراءة الجمهور، وكذلك فعل المازني أبو عثمان، والمبرد أبو العباس، والزجاج أبو إسحاق. وقد نزع المتأخرون إلى مخالفتهم فارتضوا القراءات جميعاً واقتاسوا بها، واتخذوا منها موضعاً لاستقرائهم واستنباط أصولهم، شاعت لغتها أم لم تشع ولا ريب أن في صحة القياس على ما ترد به الآيات الكريمة ثراء لأساليب القول في اللغة فوق ثرائها. وما دامت القراءات كلها على اختلافها كلام الله فمن قرأ حرفاً من هذه الحروف فقد أصاب شاكلة الصواب أياً كان ذلك الحرف، ولا يجوز منع أحد من القراءة بأي حرف، ذلك أن الوجوه التي أنزل الله بها القرآن تنتظم كل وجه قرأ به النبي وأقرأه أصحابه. قال أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط: (والقراءات لا تجيء على ما علمه البصريون ونقلوه).[42]

أمّا الدكتور شوقي ضيف فكان له مأخذ على الكوفيين بقوله" المدرسة الكوفية توسعت في القياس توسعاً جعل قياس البصرة أفضل منها؛ لأنها لم تقس على الشواهد النادرة من العربية, وطلبت في قواعدها الإطراد والعموم والشمول, كما جعلها أكثر تحرياً منها للرواية عن الأعراب و أكثر تثبتاً

لأنها _ بعكس الكوفة– لم ترو إلا عمن خلصت عربيتهم من شوائب التحضر, وينبغي أن نعرف أن الكوفيين لم يقفوا بقياسهم عند ما سمعوه ممن فسدت سلائقهم من أصحاب المدن أو ما شذ على ألسنة بعض أعراب البدو, فقد استخدموا القياس أحياناً من دون الاستناد إلى أي سماع, ونضرب لذلك مثلاً قياسهم العطف بـ (لكن) في الإيجاب على العطف بـ (بل) في مثل : قام زيد بل عمرو, فقد طبقوا ذلك على (لكن) وأجازوه بدون أي سماع عن العرب يجيز لهم ذلك[43]

ربما جار الدكتور شوقي ضيف قليلاً على الكوفيين, فهل من المنطق أن علماء الكوفة بعظمتهم وكبريائهم يذهبون بشكل فردي ليبحثوا عن كلمة واحدة منطوقة من أعرابي غير معروف لكي يثبتوا على ذلك قاعدة و يقولوا إن اللغة سماع.

إن للكوفيين بعض المواقف في اللجوء للقياس والتعليل على خلاف منهجهم الذي ارتضوا, ويرى الدكتور فاضل السامرائي أن الكوفيين لو استعملوا القياس على ما جاء في القرآن الكريم لوصلوا لغير ما وصلوا إليه, وكذلك ذهبت الدكتورة خديجة الحديثي إلى أن الكوفيين اهتموا بالقياس كغيرهم لكنهم توسعوا قليلاً في الرواية, وتساهلوا في شروط المروي ومن روي عنهم[44].

لا أرى صحة ما ذهب إليه الدكتور السامرائي؛ لأن الكوفيين لم يخرجوا عن القرآن الكريم, فالقرآن الكريم هو الأساس نعم لكن للقراءات الكريم قراءات كثيرة متعارف عليها عند الجميع ومثبته عن علماء النحو والبلاغة والتفسير, وكثير من القراءات القرآنية كانت توافق فكر الكوفة وقواعدها.

وربما لجأ الكوفيون في طريقتهم الخاصة في القياس لأنهم قصدوا أن يكون لهم مدرسة خاصة يستقلون بها على الرغم من أن أئمتهم تتلمذوا على أيدي البصريين, فحاولوا جاهدين في قياسهم هذا ومصطلحاتهم أن يميزوا نحوهم بميزات خاصة عن البصريين[45].

ولست أرى أنّ هذا الكلام صحيح عن الكوفيين لأن الكوفيون كانوا أذكى و أكبر من المظاهر والتفرد, فهم ذوو طبيعة عقلانية لها شخصيتها الاعتبارية, صحيح أنهم اعتمدوا السماع كثيراً لكن أرى أن هذا لم يكن من باب أنهم يريدون تشكيل مدرسة خاصة بهم, بل الكوفيون بعلمهم وعلمائهم كان يشكلون مذهباً مستقلاً ومذهباً خاصاً بهم بآرائهم القوية والمقنعة من دون أن يريدوا ذلك بشكل مقصود, أي إن مخالفتهم لغيرهم ليست من باب المخالفة بل من باب التميز والذكاء.

الخاتمة:

هذا البحث يعرض اهم آراء الكوفيين النحوية ودراستها من خلال السماع والقياس فكان لابد من وضع خاتمة نسجل فيها ماضمته الدراسة من أهم النتائج حرصت على ذكرها بصورة موجزة على النحو الآتي :

١_ اهتم الكوفيون بالسماع وتوسعوا فيه، واعتمدوا عليه كثيرا في تقعيد قواعد اللغة العربية وضبطها، ووضعوا القرآن الكريم في المرتبة الأولى من كلام العرب ويرونه أقوى في الحجة من الشعر لأنه نزل بأفصح لغات العرب ولا يعمل على الضرورة كالشعر، شأنهم شان سيبويه والبصريين.

٢_يكاد يجمع الدارسون المحدثون على أن الكوفيين. أكثر عناية بالقراءات القرآنية سبعيها وشاذها من البصريين في الغالب الا إذا ما استثنينا الفرّاء فهو لا يميل إلى القراءات الشاذة ولا يردها ولا يعيبها وإنما كان يوجهها شأنه شأن سيبويه.

٣_توسع الكوفيون بالحديث النبوي الشريف على وجه القلة إذا ما قيس باحتجاجهم بالقرآن الكريم وكلام العرب شأنهم شأن البصريين.

٤_اما كلام العرب فقد كان له المرتبة العالية عند نحاة الكوفة على الرغم من أن الشعر حظي بالعناية أكثر من النثر عندهم، واحتفلوا أيضا بشعر القبائل البدوية وتوثيقة والتأكد من نقله وفصاحته.

٥_احتج الكوفيون بالشعر المجهول القائل لان ائمة الكوفيين الكسائي والفراء عاشوا في أيام الفصاحة

٦_يبين لنا إن هناك تقاربا شديدا بين الكوفيين من جهة وسيبويه والبصريين من جهة أخرى من حيث الاستشهاد .

٧_اعتمد الكوفيون على القياس والسماع على حد سواء.

٨_ منهج الكوفيين في القياس قريب النسب من منهج سيبويه، لكنه لم يكن متابعا له فهم يحملون الفرع على الأصل، وبنوا قواعدهم على الشاهد الفريد وعلى الشاذ أحيانا كما فعل سيبويه والبصريون.

الهوامش:

[1] _ ينظر: مقاييس اللغة: 110/1، والصحاح: 1623/4.

[2] _ ينظر: الكليات: 122/1-125.

[3] _ ينظر: معجم المصطلحات النحوية والصرفية: 11.

[4] – المدارس النحوية, شوقي ضيف, ص154.

[5] – مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو, د. مهدي المخزومي, ص68.

[6] – المرجع نفسه, الصفحة نفسها.

[7] – المدارس النحوية, د. شوقي ضيف, ص158.

[8] – الأعلام. الزركلي, ج7, ص58.

[9] – بغية الوعاة, السيوطي, ص82.

[10] – الحلقة المفقودة في النحو. د, عبد العال مكرم, ص408.

[11] – إنباة الرواة , القفطي, ج4, ص105.

[12] – تاريخ آداب العرب, جرجي زيدان, ج2, ص117.

[13] – نزهة الألباب, ابن الأنباري, ص34

[14] مجالس العلماء: للزجاجي: 266.

[15] –ينظر: المصدر نفسه.

[16] – الأعلام, الزركلي, ج8, ص145.

[17] – الفهرست, ابن النديم, ص32.

[18] – الفراء ومذهبه في اللغة والنحو, الأنصاري, ص219.

[19] – الخصائص, ابن جني, ج1, ص27.

[20] – الاقتراح, السيوطي, ص77

[21] – المدارس النحوية, د. شوقي ضيف, ص48.

[22] – المزهر , السيوطي, ص134

[23] – سيبويه جامع النحو العربي, مسعود فوزي, ص55

[24] – فهرست كتاب سيبويه.

[25] –مدرسة البصرة, د. عبد الرحمن السيد, ص90

[26] – القياس النحوي بين مدرستي البصرة والكوفة, د. محمد السويح, ص271.

[27] – في قضايا فقه اللغة العربية, صالح بلعيد, ص151.

[28] –مصادر الشعر الجاهلي, د. ناصر الدين أسد, ص44

[29] – المرجع السابق, الصفحة نفسها.

[30] –من تاريخ النحو, د. سعيد الأفغاني, ص57.

[31] – في أصول النحو, سعيد الأفغاني, ص299

[32] – المرجع نفسه, ص337

(33) – المرجع نفسه, ص341.

(34) – النحو العربي والدرس الحديث, د. عبده الراجحي, ص50.

(35) – مدرسة الكوفة, د. المخزومي, ص337

(36) –العربية وعلم اللغة البنيوية, حلمي خليل, ص44

(37) – كمال جبري, المفصل, ص33

(38) – المدارس النحوية, د. شوقي ضيف, ص55

(39) – القياس في النحو العربي, د. سعيد الزبيدي, ص44

(40) – بغية الوعاة, السيوطي, ج2, ص166

(41) – في أصول النحو, سعيد الأفغاني,ص188

(42) – البحر المحيط, أبو حيان, ج2, ص363.

(43) – المدارس النحوية, د. شوقي ضيف, ص163.

(44) – الشاهد و أصول النحو في كتاب سيبويه, د. خديجة الحديثي, ص229

(45) – المدارس النحوية, د. شوقي ضيف, ص165.

المصادر والمراجع

- Grammar schools, Shawki Dhaif, publisher: Dar Al Maaref.
- The Kufa School and its Approach in the Study of Language and Grammar, Mahdi Al-Makhzoumi, Publishing House: Mustafa Al-Bali Al-Halabi and Sons Press.
- Al-Alam, Al-Zarkali Khair Al-Din Mahmoud bin Muhammad bin Ali bin Faris Al-Zarkali Al-Dimashqi (d. 1396), Publisher: Dar Al-Ilm for the Millions, i: fifteenth.
- .For the sake of the vessel, Al-Suyuti Jalal Al-Din Muhammad Al-Suyuti (d. 911 AH), T.: Muhammad Abu Al-Fadl Ibrahim, Publishing House: Issa Al-Babi Al-Halabi and Partners Press
- The missing link in grammar, Abdel-Al Salem Makram, publisher: Lebanon, i: the first
- Anbah the narrators, Al-Qafti Jamal Al-Din Abu Al-Hassan Ali bin Yusuf Al-Qafti (d. 646), Publisher: The Racist Library, Beirut, I: First
- History of Arab Literatures, Jurji Zaidan, Publisher: Faggala, Egypt, Al-Hilal Press
- Nuzhat Al-Albab, Ibn Al-Anbari Abdul Rahman bin Muhammad bin Abdullah Al-Ansari, Abu Al-Barakat Kamal Al-Din Al-Anbari (d. 577), T.: Ibrahim Al-Samarrai, Publisher: Al-Manar Library, Zarqa, Jordan, I: Third
- .Majalis Al-Ulama, Al-Zajji Abdul Rahman bin Ishaq Al-Zajji Abu Al-Qasim (d. 337), T.: Abdul Salam Haroun, Publisher: Al-Khanji Library _ Cairo _ Dar Al-Rifai in Riyadh, i: Second

- .Al-Fihrist, Ibn Al-Nadim Abu Al-Faraj Muhammad bin Ishaq bin Muhammad Al-Warraq Al-Baghdadi Al-Mu'tazili Shiite known as Ibn Al-Nadim (d. 438), T.: Ibrahim Ramadan, Publisher: Dar Al-Maarifa Beirut _Lebanon, i: Second
- Al-Fara and his doctrine of language and grammar, Al-Ansari Ahmed Makki Al-Ansari, Publisher, The Supreme Council for the Sponsorship of Arts, Letters and Social Sciences – Cairo
- .Characteristics, Ibn Jani Abu al-Fath Othman ibn Jani al-Mawsili (d. 392), Publisher: The Egyptian General Book Organization, i: fourth
- .The proposal by Al-Suyuti Abdul Rahman bin Abi Bakr Jalal Al-Din Al-Suyuti (d. 911), T: Dr. Mahmoud Al-Fajal, publisher: Dar Al-Qalam, Damascus, I: Al-Awwal
- .Al-Mizhar, Al-Suyuti
- .Sibawayh, the Arabic grammar collector, Masoud Fawzy, publisher, the Egyptian General Book Organization, i: the first
- .Sibawayh's Book Index, T.: Abd al-Salam Haroun, Publisher, Al-Khanji Library, Cairo, I: The Third
- .Basra School, Abd al-Rahman Muhammad al-Sayyid, publisher Dar al-Sharq, Amman, Jordan, i: the first
- .Grammatical analogy between the schools of Basra and Kufa, Muhammad Ashour Al-Suwaih, Publisher: Dar Al-Sharq Amman, Jordan, I: First
- .On issues of the Arabic language, Saleh Belaid
- .Sources of pre-Islamic poetry, Nasir al-Din Asad, publisher: Dar al-Jeel, i: the seventh
- From the History of Grammar, Saeed bin Muhammad al-Afghani (d. 1417), publisher: Al-Falah Library
- .On the Origins of Grammar, Saeed Al-Afghani, Publisher: Al-Islamiyya, Islamic Library Edition
- .Arabic Grammar and Modern Lesson, Abdo Ali Ibrahim Al-Rajhi (d. 1431), Publisher: Dar Al-Nahda Al-Arabiya – Beirut
- .Kufa School, Mahdi Makhzoumi, Publisher: Mustafa Al-Babi Al-Halabi Library and Printing Company
- .Arabic and Structural Linguistics, Helmy Khalil, Publisher: Alexandria Publishing House
- .Al-Mufassal, Abahri, Kamal Jabri Asif, p.

- .Measurement in Arabic Grammar, Saeed Jassem Al-Zubaidi, publisher: Dar Al-Sharq for Publishing and Distribution

- .The Ocean, by Abu Hayyan Muhammad bin Yusuf Ali bin Hayyan Atheer al-Din al-Andalusi (d. 745), T: Sidqi Muhammad Jamil, publisher: Dar al-Fikr Beirut

- .The Witness and the Origins of Grammar in Sibawayh's Book, Khadija Al-Hadithi, Publisher: Kuwait University Publications, I: The First